وشوهدت الامعاء في مكانها من البدن فاستدل ذلك على ان السائل الذي حقنت به الجثة لم يرسل من طريق الشرج بل يجوز من المحنط اكتفى باحاطة الجثة بالاقمشة مستعيناً ببعض المواد الواقية واستغنى ايضاً عن مدة السبعين يوماً المقررة للتحنيط عندهم واثبت الدكتور وليم جروس (William Gross) ان صاحب هذه الجثة مات مسموماً لان تقلص عضلات البدن والمعدة وتمبّس الوجه وما ظهر عليه من تأثير الالم وانشاء الرأس وقبح الهيئة دلّ على ان الوفاة حدثت إما بالغرق او الخنق أو السم إذ ترى الذراعين بعيدتين عن الجسد وعلى الرجلين رباط قوي يظهر من أمرهم ان المحنطين حاولوا اخفاء الجريمة فشدوه شداً قوياً

ستأتي البقية الدكتور حسن كمال

القلاع والحصون في سورية

«١» قلعة قبّ الياس

تمهيد في تسمية القرية — لقد نقل اكثر المؤرخين والكتبة اسم هذه القرية التي فيها القلعة المشهورة في الايام الاخيرة مجازفة دون تمحيص وهي عادة كتّابنا ومؤرخينا الذين نرى معظمهم يعتمدون على مجرّد النقل دون عرض الحقيقة على العقل والتاريخ لتصحيح الرواية وتحقيق التسمية

ولقد افردتُ قسماً من وقتي لدرس اسماء البلدان والمدن والقرى والاماكن وما يتصل بها ولاسيما في سورية حيث نرى في التسميات آثار العبادات القديمة والاساطير الخرافية والحوادث المهمة. ففي ايام الحرب الكبرى أخذت على نفسي وضع تاريخ لسورية المجوّفة (Coele - Syria) واماكنها وعاداتها وابنيتها وهياكلها وحلّلت فيها الاسماء تحليلات توافق التاريخ والعقل ولعلي في ما وصلت اليه من هذه الابحاث على هدى. ولقد نشرت من امثلة هذا الكتاب مقالة (اقدم سكان سورية اللودانيون او الوثانيون) في هذه المجلة الشهيرة بابحاثها المفيدة والآن اقدم هذه المقالة الثانية لقراء لعلهم يجدون فيها لذة وتنبيهاً لطروق هذه المواضيع التحليلية

لقد رأيت اسم هذه القرية (قبّ الياس) في كتب كثيرة قديمة. على ان

المؤرخ الكبير البطريرك اسطفان الدويهي يذكر في تاريخه المطبوع صفحة ٩٧ هذه العبارة: « وفي سنة ٧٥٢ (١٣٥ م) سار المقدم الياس[1] الى البقاع فنهب تلك القرى وقتل اهلها فارسل صاحب الشام اليه رسولاً ليعقد معهُ صلحاً. ثم ارسل فكبسهُ على حين غفلة وقتلهُ. وبعد رجوع عسكر الشام رجعت القرية تسمّى قبّ الياس ... » فمعنى قولهِ (رجعت القرية تسمّى قب الياس) دليل انها كانت بهذا الاسم قبل هذه الحادثة التي بنى عليها المؤرخون تسميتها (قبر الياس) ثم (قبّ الياس). واذا قلبت صفحة واحدة من تاريخ الدويهي اي طالعت صفحة ٩٨ تجد كلاماً لابن القلاعي احد مؤرخي الموارنة يدل على عدم امكان هذه التسمية اذ قال عن المقدم سمعان ابن اخت المقدم الياس المقتول ما نصهُ: « ولذلك لما وقعت الواقعة فرّ مع جملة من المقدمين ولم يحاموا عن اميرهم لشدة غيظهم منهُ بل رجعوا بعد قتلهِ فدفنوا جسدهُ في قبّ الياس وارادوا ان لا يذكر احد اسمهُ البتة لزعمهم انهُ عاش ومات مرذولاً » فمن هذا الكلام فسدت الرواية التي بنيت عليها التسمية. وذهب البعض ان القرية مدفن النبي الياس (ايليا) وهذا ابعد عن الحقيقة. واغرب من الروايتين ما ورد في تاريخ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية للخوري ميخائيل غبريل اللبناني (٣ : ٣٨٦) ما معناهُ: انها سميت (قب الياس) لان المقدم الياس ارتمد من الروم فخاف وهرب وكلمة (قبّ) السريانية بمعنى الرعدة والفرار. وانكر القول انها قبة او قبر الياس. فانظر الى هذه المجازفات التاريخية والمناقضات التحليلية في الاسماء. ولقد اشار الى فساد هذه التسمية الاب لامنس اليسوعي ايضاً

والذي يتسهّل للذهن القاصر ان هذا الاسم مركّب من كلمتين قديمتين هما (قبّ) (والياس). فاذا حللنا الاولى الى انها فينيقية ونحوها بمعنى مقرّ ومصرية بمعنى زاوية او الى كلمة (آبل) العبرانية المحرّفة بمعنى مرج و (إليوس) الى كلمة (هليوس) اليونانية بمعنى الشمس عرفنا ان اسم القرية مقرّ الشمس او زاوية الشمس او مرج الشمس لشيوع عبادتها في سورية المجوفة ولوجود الهياكل العظمى لها في المشارف والسفوح اهمها هيكل بعلبك

ومما يؤيد هذا الرأي ان قلعة (قب الياس) المحولة عن هيكل شمسي قديمة

(١) من امراء المردة الذين كانوا في قصبة بكفتا في سفح جبل صنين

قائمة على رابية بل زاوية في سفح جبل عين دارة تُطلّ عليها الشمس عند ما ترسل اشعتها على البسيطة وفوق القلعة في محلة رأس العين تمثال على صخرة ترتفع نحو ١٢ متراً على بعد نحو نصف ساعة من القرية على ضفة النهر الجنوبية يمثل شخصاً حتياً برأس نسر مسترسل الرداء ورجلاهُ ظاهرتان من تحتهِ في يدهِ اليسرى مخصرة اوصولجان واما اليد اليمنى فيشير بها الى مطلع الشمس من الشرق ورأسهُ رأس نسر وقربهُ قواعد اصنام تدل على محلات لعبادة الشمس كرّس لها ذلك المحلّ فلا عجب اذا سمّيت بهِ . ولاسيما ان اسم البقاع (بالعزيز) يدل على عبادة الشمس

ومن الادلة الاخرى ان في السهل قرية (برّ الياس) وهي بمعنى (إبن الشمس) و(بر) بالنبطية بمعنى (ابن) وكذلك بالعبرية او من (بير) المصرية بمعنى بيت لان قرب قب الياس صخرة عالية فيها محل منقور بصخر يدلّ على ان هناك كانت مرآة تعكس نور الشمس اول بزوغها الى تلك القرية فتعيد فيها الشمس والذين يشمّسون (يعبدون الشمس) كانوا يهتمّون بان يتبرّكون بقرب اشعتها منهم بان يحمّسوا اياهم. وكفى بهذه الادلة تأييداً لهذا الرأي

فثبت اذن ان اسم (قب الياس) و(برّ الياس) هو من اسماء الشمس شيوع عبادتها هناك . ومثلها اسم قرية الطفياس[٢] قرب بيروت فانهُ من كلتي (أتى) بمعنى مقابل و(إيليوس) بمعنى الشمس فكأنهم كانوا يعبدون الشمس عند غيابها كما يعبدونها عند شروقها والله اعلم

قلعة قبّ الياس — بعد ما ثبت من الكلام السابق ان محل هذه القلعة كان هيكلاً للشمس منذ الايام القديمة فنستنتج ان القلعة المشيدة على انقاضهِ يجب ان تكون قديمة ايضاً لاتخاذ الهياكل حصوناً كما مرّ ويؤيد ذلك ان موقع هذه القرية في رابية تدافع قلعتها عمّن يهاجمها من طريق صور وصيداء في البقاع الغربي ومن يغزوها من مضايق جبل الكنيسة في طريق المريجات . وكذلك من شعاب قرية عين دارة فضلاً عن انها تقابل مدخل وادي القرن الى دمشق وتحمي ذلك السهل من جيوش الفاتحين

ولقد خربت هذه القلعة مراراً ورممت ولم نقف على ذكرها في التواريخ التي

(٢) وتقول العامة ان احدهم قال لالياس (انت الياس ؟ فهرب فقيل (قب الياس) فلفظه الى (برّ الياس) فكانت التسميات الثلاث وهذا من الغرب المجاز فتأمل

بين ايدينا الاَّ في القرن السابع عشر كما سيجيء على انها كانت معتلاً قديماً في الحروب التي نشبت في هذا السهل ولاسيما في ايام المصريين والسلوقيين وايام الصليبيين والعرب والروم والمردة والتتر

واول ذكر لها سنة ١٦١٥ م وكانت في حوزة الامراء الحرافشة حكام بعلبك ولاسيما الامير يونس منهم الذي خرَّب الامير فخر الدين المعني داره في قرية قب الياس سنة ١٦٢٣ اقتصاصاً منهُ والظاهر انهُ هدم القلعة ايضاً لان التاريخ يذكر بعد هذا ان المعني ولّى سليمان حيمور من سكان البقاع حكومتهُ ووكل اليهِ بناء القلعة لانها كانت مخيم عساكرهم وحصنهم المنيع فتحصَّنت القلعة بمعدَّات الحصار والدفاع وعززت بالمدافع كما نذكر كتب كثيرة انها كانت تدفع الاعداء بمدافعها ولاسيما في عهد احمد باشا الجزار حاكم عكا في اواخر القرن الثامن عشر . وسنة ١٧٨٢ حصنها الامير سيد احمد الشهابي شقيق الامير يوسف حاكم لبنان وحمل اليها المدافع واقام في القلعة وعاث في تلك الجهات واخذ الطرق على القوافل حتى ضجت البلاد من اعماله فحاصر عسكر عثمان باشا والي دمشق مع رجال الامير يوسف تلك القلعة نحو ثلاثة اشهر حتى نفد الزاد فسلَّم الامير سيد احمد عن يد خاله الامير اسمعيل حاكم حاصبيا وترك القلعة فامر الامير يوسف بهدمها وتعسر على هادميها دكّ جدرانها فهدموا قليلاً منها لان الامير فخر الدين المعني كان قد بناها بناء متيناً لتقوى على ضرب المدافع والقنابل في الحصارات. وكان عندهُ مهندسون وبناؤون من توسكانة من البنادقة فشيدوا حصونهُ على طراز منيع ولاسيما هذه القلعة التي دافع فيها عن لبنان في مدة ملكهِ الطويلة

والمرويّ على ألسنة الشيوخ المعمَّرين انهُ كان على بابها اسم (الامير فخر الدين بن معن) وعلى احدى عتباتها هذه العبارة (لما صار رطل الزيت بمصريتين بطلنا النهار) . ويقال ان حجارتها بعد ترميمها كانت من قلعة عنجر على بعد اربع ساعات في سفح الجبل الشرقي الى غربي القلعة. والذين شاهدوا بقاياها يقولون انها كانت ذات ثلاث طبقات وعرض جدارها اربعة امتار وكلها مضموسة حجارتها بملاط فيهِ زيت الزيتون والماء تدور فيها كلها . وحولها خنادق متينة . ولما كانوا يهدمونها اضطروا الى فتح ثقوب فيها لصمودها بالبارود حتى تمكنوا من هدمها. وكان آخر هدمها في عهد درويش باشا والي الشام في اوائل القرن التاسع عشر الماضي

وموقع هذه القلعة على تلة في اعلى القرية الى شمالها وهي ذات ثلاث طبقات كبيرة الحجم كان الداخل فيها يضل لكثرة ما فيها من المخادع والمداخل وفيها حوض كبير لخزن المياه بطول عشرة امتار وعرض ستة. ولم يبق اليوم من جدرانها الا قسم من الجدار الغربي بعلو نحو ١٥ متراً. وتحت القلعة قبو ضخم قديم بطول نحو ١٥٠ متراً وعرض نحو ٧٠ متراً. والى الشرق الشمالي من القلعة على زاويتها برج يشرف على السهل وهو الآن مهدوم علوه نحو ٧٠ متراً عن الصخر الكبير تحته ونحو مائة متر عن سطح السهل. وعلى سطح ذلك الصخر بعض حجارة قديمة من اطلال القلعة التي اشتهرت في الحروب القديمة والحديثة

ولم نقف على وصف كاف لهذه القلعة في ايام عمارتها عدا ما قرأناه في (رحلة البقاع العزيز) للعلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المتوفى سنة ١١٤٣ هـ (١٧٣٠ م) وهاك ما ذكره ننقله بالحرف عن هذه الرحلة التي تكرم باستنساخها لنا من مكتبته النفيسة صديقنا السيد العالم محمد جميل الشطي نائب الخابلة وامهم في دمشق فنشكر له عنايته وكرمه: قال النابلسي: «وقد وجدنا في قرية قبر الياس المذكورة قلعة متينة من بناء بني معن الذي كان امير الدروز سابقاً وله سيرة غير مسكورة. وخارج القلعة برج خراب وفيه بئر ماء مردوم بالتراب وباب القلعة تجاه ذلك البرج المهدوم وهو باب من الخشب المتين لا يعمل فيه الفأس ولا القدوم وداخل الباب دهليز طويل جميعه مبني بالاحجار الكبار والقبو الذي ما اليه سبيل. وعلى يمينة الداخل حجرة كبيرة ذات مرام متينة وفيها درج الى سطح القلعة وبئر ماء غير معينة ثم في نهاية ذلك الدهليز باب للقلعة ثان وداخله دهليز صغير ينتفع فيه القاصد والعاني ثم بعد ذلك باب ثالث يدخل منه الى تلك الساحة في وسط القلعة وهي واسعة المساحة وفي وسطها بئر يجتمع فيه الماء من الامطار التي تنزل من اعالي الاسطحة وهو بئر كبير اوسع من قدر لعض الساحة له ثمان مفتوحان للانتفاع والمعاجة. وفي تلك الساحة ايوان واسع كبير في كل ناحية منه حجرة ذات شبابيك ما لها من نظير وفيها مطبخان كبيران مبنيان بالاحجار من الصوان. وبالقرب منهما بيتان لما يحتاج اليه من آلات الطبخ وغيرها معدان وهناك فرن وحمام صغير وثلاث حجرات شرقية كبار ذات شبابيك شرقية كلها معمولة بالقبو والتحجير. والجهة الشرقية مشتملة على اربع حجرات

وعلى ميسنة الايوان باب فيهِ عشرون من الدرجات . وعلى ميسرة هذا الدرج حجرة مظلمة ليس فيها شبابيك غير مرماة واحدة ودا خلها دهليز فيهِ سبعة مرام نافذة وعلى ميسرة هذا الدهليز حجرة كبيرة فيها شبّاكان مطلاّن على ساحة القلعة الخطيرة وايضاً حجرة مطلة على تلك الساحة المستديرة. وعلى ميسنة الدرج المذكور ايوان كبير وفيهِ مرام وشبابيك يتمتع بها كلُّ بصير. وخارجهُ حجرة فيها شبابيك ومرام وباب يتوصّل منهُ بدرج الى سطح القلعة السامي. وفيها ايضاً باب بعشرين دركة يُتوصّل منهُ الى باب القلعة . وباب ايضاً بعشرين دركة في اعلاه بيت للطهارة مع دهليز ثان بهِ مرام اتقنها البانى . وفي ميسرة ذلك الدهليز حجرة شمالية فيها منافع شرعية وفيها ثلاثة شبابيك مطلّة على اماكن علية . ثم بعد ذلك حجرة بشبّاكين مطلين على الساحة المزبورة. وايضاً حجرة شتوية صغيرة وايضاً درجان على الميسرة يصعد منهما الى السطح كل واحد منهم خمس عشرة درجة وسبع مرام على اسطحة الحجرات متدرّجة . وفي كل حجرة من الحجرات المذكورة وجاق مبنيّ من الحجارة . وهناك حُجرات شمالي القلعة قد شرع في بنائها وساعت لها العمارة . وفي تلك الاسطحة مبازيب من الحجر الى جهة مساحة القلعة وايضاً درج مقدار الاربعين درجة الى اسفل تلك الساحة ذات الوسعة . وفي اثناء الدرج بيت للطهارة. ودرج آخر على يمينهِ ثماني حجرات كل ذلك مصنوع من الحجارة. وبالجملة فهي قلعة مشتملة على منافع كثيرة وامور تدعو اليها الضرورة. وقد قلنا في وصفها وحسن ارتفاعها ولطفها :

وقلعة تلمت عين العدوّ بما ... علت بهِ من بروج ذات تحصين
كانها فوق قبر الياس مشرفة ... على جوانبهِ تاج السلاطين انتهى

هذا وصف دقيق لهذه القلعة في شهر ذي القعدة سنة ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ م) يدلُّ على ما كانت عليهِ من العمارة بعد المعنيّ الذي رممها. ولقد تناوبت على هدمها ايدي الحكام والجيوش وساعدتها رجفات الزلازل التي رقصت لها اعطاف سورية سنين متوالية ولاسيما زلزلة ١٧٥٩ م وما وليها من الرجفات الاخرى . فاصبحت اليوم اطلالاً دارسة ليس فيها الاّ بقية جدار وقليل من الآثار كما مرّ فسبحان الحيّ الدائم

عيسى اسكندر المعلوف
مؤلف تاريخ الاسر الشرقية

زحلة